

- العقل والجهل -

قال تعالى في كتابه العزيز: ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم.

وذلك لأن الإنسان هو غرض الباري من جميع مخلوقاته. إنه جوهر هذا الوجود وغايته ومحجته البيضاء. لأنه الكائن الوحيد القادر أن يعقل نفسه ويعقل قوانين الطبيعة ويعقل معنى الله على قدر منزلته في الله. ويعقل أمر الله العقل الفعال محرك المتحركات ومدبر شؤون الأنفس والأرض والسموات. فالعقل سيّد هذا الوجود ونقطة دائرة بيكاره وسدره منتهاه، سمّاه اليونان لوغوس وسمّاه الفلاسفة علة العلل. والبعض سمّاه النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

عرّف الأسلاف العقل بأنه الوقوف عند مقادير الأشياء قولاً وعملاً. أي تحديد الأشياء ليغدو وجودها واضحاً جلياً لا لبس فيه ولا غموض. بعيداً عن الخواطر والأوهام والأمانى والأحلام. وهذا بالضبط ما كان يقصده سقراط عندما كان يقول، أيها الناس عندما تتكلمون حددوا ألفاظكم. ولقد أدرك فلاسفة اليونان منذ القرن الرابع ق.م. أنه لا يمكن تحديد الألفاظ والمعاني بدون علم المنطق فابتكره أرسطو وجعل منه ميزاناً لكل العلوم.

قال النبي الكريم في مدح العقل: ما اكتسب ابن آدم أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يردّه عن ردى. وقال ابن سينا: لو صورّ العقل لأضاء عتمة الليل. وإن ننسى لا ننسى ما قاله المتنبي:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

ولقد ميّز الفلاسفة بين العقل والعلم وبين العقل والأدب فقالوا أن بالعقل نكتسب الفضائل البرهانية، والعلوم الإلهية، والكليات المجردة، والبديهيات المنطقية. أما العلم فهو معرفة الجزئيات المحسوسة بمسيرة تقنياتها وقوانين حركاتها في الإنشطار والاندماج، والتواصل والتناظر. حتى إذا وصلت معرفة الجزئيات المحسوسة إلى الكليات المجردة أصبحت عقلاً. وكذلك قالوا أن الأدب هو معرفة

سلوكيات الإنسان التي تجعل منه إنسانا عادلا إيجابيا في التعامل مع نفسه وفي التعامل مع الآخرين. سواء في بلاغة لغته أو في انضباط تصرفاته حسب قواعد علم الأخلاق. حتى إذا وصلت آدابه إلى مرتبة الحكمة أصبحت عقلا. وقالوا أن الأدب بحاجة إلى دليل يرشده هو العقل. والعقل بحاجة إلى آداب تجسده واقعا إجتماعيا ملموسا. ف قيل: العقل بلا أدب فقر، والأدب بلا عقل حتف. وقيل: بلوغ شرف المنزلة بغير عقل إشراف على الهلكة. وقالوا أيضا: عاقل بلا أدب كفارس بلا سلاح. والعقل والأدب كالروح والجسد. فالعقل روح الأدب والأدب جسد العقل. وكما ربطوا العقل بالأدب ربطوه أيضا بالتقوى. والتقوى كما قال الرسول الكريم، أن تتقي الله في نفسك وتتقيه في الآخرين. أن تتقيه في نفسك بمعنى أن تتصرف حسب إرشادات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأن تتقيه في الآخرين بمعنى أن تكون عادلا في أقوالك وأعمالك وأحكامك.

قال الإمام الحسين بن علي: ثلاثة تذهب ضياعا، دين بلا عقل، ومال بلا بذل، وعشق بلا وصل.

والعقل لا يكون إلا بمصاحبة العقلاء، قال الزهري: إذا أنكرت عقلك فاقدحه بعاقل. فعدو ذو عقل أبقي عليك وأرعى من الصديق الوامق الأحمق، فطبيعي أن يكون شبه الشيء منجذب إليه. والغريب هو جمع ما تنافر، وتقريب ما تباعد. ولذلك كان العقلاء يتبرمون من صحبة الجهال حتى قال الحسن البصري: العاقل بخشونة العيش مع العقلاء، أسرّ منه بليين العيش مع السفهاء. وقال الشاعر:

دارت عليه صروف دهره
من جاهل يزري بقدره

لم يبيل ذو الجهل الذي
ببليّة أشجى له

والعقل في ذروة كماله هو القدرة على ادراك الكليات المجردة التي سماها أفلاطون عالم المثل وسماها أرسطو الفضائل البرهانية أما المتصوفون فسموها نورا يقذفه الله في صدر المنتجب فيدرك المعقولات إلهاما وليس اكتسابا.

كمال يوسف سري الدين

